جورجيا
لؤلؤة القوقاز

محمد بن سيف الرحبي

قبل أن يحين موعد سفري إلى جورجيا كان السؤال يلحّ من ألسن شتى: كيف اخترت هذه البلاد؟ ما الذي حفّزك للترحال صوبها، حيث اللغة حاجز كبير، والجغرافيا غامضة، والعلائق مع ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي لم تزل تلقي بإرثها على هذه الدولة التي خرجت من رحم «المحور الشيوعي» بعملية قيصرية سالت بسببها الكثير من الدماء، والأكثر من الضغائن.

شخصيا.. لا أعرف جورجيا، ولكنني اعرف شيفارنادزه..

لم أسمع عنها بما يكفي لأعرفها، إلا في العامين الأخيرين، لكن شيفارنازه كان الحاضر الدائم في سماوات الإعلام خلال أكثر من عقدين..

كانت جورجيا بقعة صغيرة تسبح في تيار الاتحاد السوفييتي الهائل، وكان آخر رجل تولى حقيبة وزارة الخارجية السوفييتية الرجل الذي وضع بصمته في جورجيا، البلد الذي غامر بالانفصال دون أن ينتظر الانهيار الكامل للدب بعد أن هبتّ عليه رياح الجلاسنوست والبيروستريكا كما سوّقها آخر الرؤساء السوفييت، جورباتشوف، فتفتت الاتحاد الهائل إلى دول عانت التبعية القسرية، وكان من ضمن الذين خرجوا من عباءته.. جورجيا.

شيفارنازه ثاني رئيس منتخب، قاد بلاده بعد أن أطيح بأول رئيس انتخب في جورجيا إثر انفصالها عام ١٩٩١، مناضلا من أجل إنهاء الحرب الأهلية في بلاده، عاد إلى بلاده عام ١٩٩٢ وسط الحرب المستعرة، وتداعيات الانهيار الهائلة..

وقيام الدول مرة أخرى بعد انمحاء الحدود وتداخل القوميات أمر يلزمه أنهار من الدم لتستقر البلدان.. ولو قليلا.

أقول أعرف شيفارنادزه لأنه كان نجم الإعلام، فبعد أن برز في أهم مرحلة من مراحل الاتحاد السوفييتي، وكانت فيها الانهيارات تتداعى، كان نجما في بلاده، خاض انتخابات عام ٢٠٠٠ ونجح فيها، لكنه خرج من الرئاسة بعد أن قاد معارضوه ما سمي بـ«ثورة الزهور"، إذ تبيّن عدم نزاهة الانتخابات، قاد الثورة كل من ميخائيل ساكاشفيلي وزوراب جفانياونينو بورجانادزه، وهم أعضاء سابقون وقادة في حزب شيفرنادزه الحاكم، وهكذا خرج الرجل ذو الشعر الأبيض من معركته مع التاريخ، وانتخب ساكاشفيلي رئيسا

لجورجيا في عام ٢٠٠٤.

بعد نحو عشر سنوات من ذلك الخروج (السياسي) غادر هذا الرجل الدنيا، عن ٨٦ عاما، بعد صراع طويل مع المرض، وهو الذي عرف من الصراعات ما لا يحصى، فهو أحد مهندسي الحرب الباردة مع «الرفيق» ميخائيل جورباتشوف، لكن الزمن له شروطه القاسية وهو لا يعرف التوقف.

ذهب الاتحاد السوفييتي، وذهب شيفارنادزه.. وبقيت جورجيا.

عقارب الساعة تشير إلى مسقط

.. وهكذا حدثتني نفسي بزيارة بلد منها، وكانت جورجيا الواجهة الابرز أمامي، متخذا من التاريخ مرجعا، ومن خبرات سياح سابقين مطمعا، وكلما قلت إنني انوي على تبليسي يقول البعض إنهم زاروها، أو جاءوا منها للتو، وتواصلت مع أصدقاء في دول مجاورة فقالوا انهم سمعوا بمن سار إليها، هذا العام أو الأعوام الماضية.

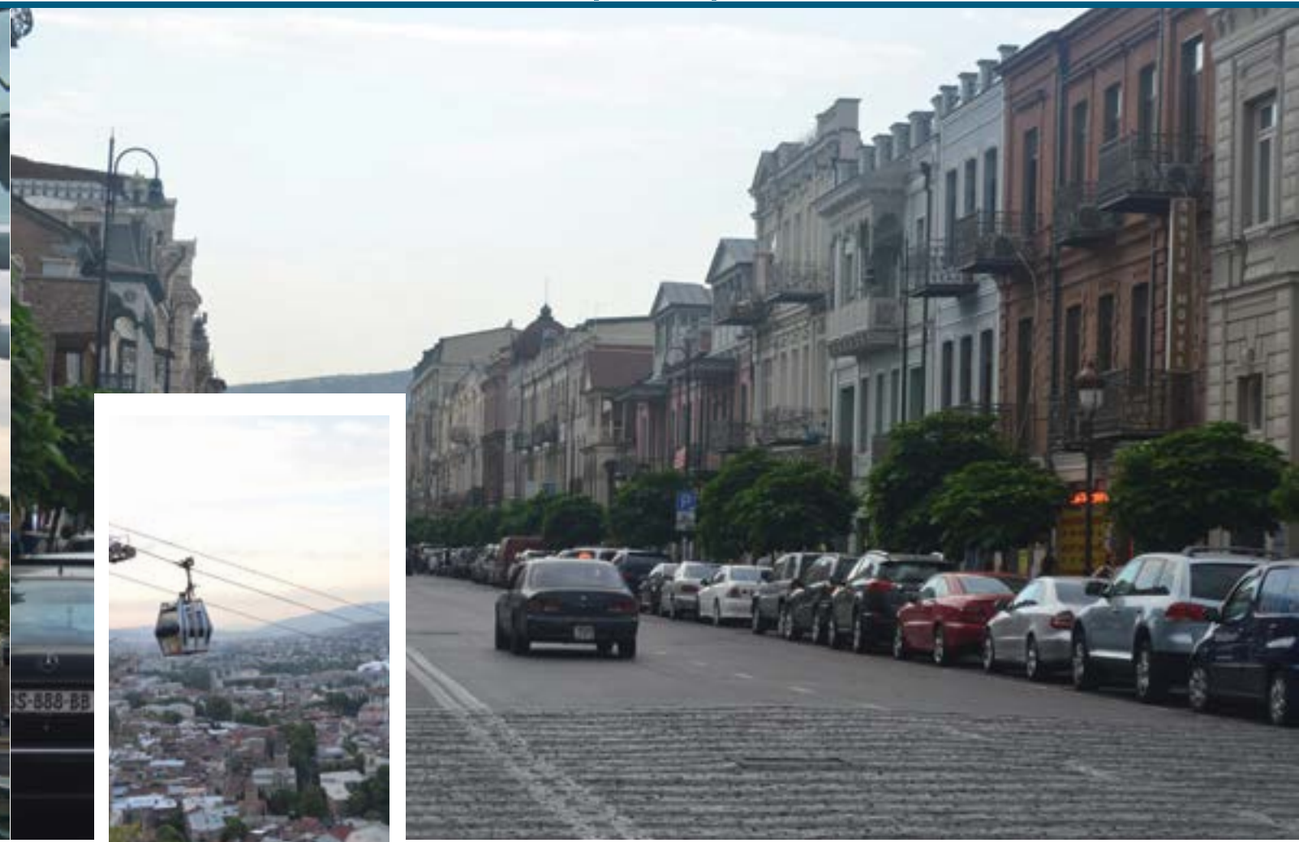

خفّف ذلك من غلواء التساؤلات عن سبب اختياري لها، إذ إن كل يوم يمضي من الزمن الفاصل بين الحجز والسفر أكتشف أن هناك من سبقني، وهناك من وطّن نفسه على السفر إليها، فلن أكون وحيدا في السير صوب مجهول، وفق التصورات السابقة، ولم تكذب شركة الطيران الخبر «كما يقال»، فقد كانت الطائرة «تتكلم عربي» أو بالأحرى «اللهجة الخليجية»، فتراجع قلقي من زيارة بلد لا تتحدث ما نعرفه من لغتين، العربية والانجليزية، وبلد كانت شيوعية في هواها السياسي، تجاهد لتقديم نفسها على أنها بلد سياحي، وهي جديرة بأن تكون مستحقة للقبها «لؤلؤة القوقاز».

لكن مطار تبليسي كان سخيّا في تعامله، وبسيطا حدّ انتهاء الإجراءات في دقائق معدودة، ولم تكن علينا مهمة المرور عبر التأشيرة، كأنهم يريدون للمال السياحي أن يأتي إلى بلادهم بردا وسلاما، خاصة من البلدان المعروفة بسمعة سيّاحها.. كعمان.

بدأت علاقتي بالمدينة بضبط ساعة الصبر على معصم السفر، حيث المفاجآت متوقعة، بدءا من سائق سيارة الأجرة الذي استفاد من ورقة المائة دولار لياخذها كلها في مشوار ربع الساعة الفاصل بين المطار والفندق، والمفاجأة الأخرى بمستوى فندق الإقامة، المصنف على موقع الحجز أنه من ذوي النجمات الأربع، فإذا به لا يزيد عن نجمة ونصف النجمة، وهذا ما أيدني فيه السائق وهو يصرّ بيده على المائة دولار، على اعتبار أن الفندق «نصّاب» وهو بريء!.

لم نضطر إلى تغيير الأرقام على وقع حركة عقارب الساعات في معاصمنا، فتبليسي على ذات التوقيت مع مسقط، لكن شمسها تغرب متأخرة، ويأتيها الليل أقصر لكنه كاف لتلك المتعة البصرية، حينما وقفت على أقدم جسورها في المدينة القديمة، وأمامي جسر آخر للمشاة، تحفة معمارية مصاغة بجمالية معاصرة تحتها يسير نهر كورا بتؤدة، وحينما تتحرك الأضواء في الجسر تزيد من

فتنة المعمار الهندسي فيه، وأعلاه يسير التليفريك ناقلا البشر فوق الماء والمنازل، حتى الجبل، باخضرار أشجاره والمطر القليل الذي يزيد من فرط الدهشة بليل مدينة تختلف عن مدن أوروبية أخرى ولو قليلا، أنها لا زالت بمسافة عن المدنيّة الصاخبة.

في ساحة واسعة كان الماء يتراقص على وقع الموسيقى، وباعة ينثرون بضاعتهم الطفولية، وهناك من يقدم خدمات السيارات الكهربائية، يسيرون بين مسطحات خضراء وحركة حياة باذخة بجمال الأماسي ونسائمه، وحسناوات يجمّلن الليل، بذلك الجمال القوقازي الناعم، على الضفة الأخرى من النهر ارتفاع جبلي كأنه حائط، فوقه كنيسة قديمة، وتمثال أول حاكم اكتشف مدينة الينابيع الحارة التي تعنيها كلمة تبليسي، ومنازل بشرفات كانت المرشدة السياحية، الصبيّة الحسناء، على المركب السائر فوق الماء تخبرنا عن حسناوات كن يعملن في تلك البيوت المطلّة على النهر، لكنهن يترقبن أعين عشاق تتوق إليهن وهم يسبحون في النهر، ليكونوا خطّابا يقرعون أبواب منازلهن..

موسيقى وماء.. وحسن

الموسيقي الجورجية التقليدية تأخذنا في مسامات المساء، نوتة الضوء ترقص أيضا على صفحات الماء، والعازف بلباسه التقليدي يضع لونا خاصا على اللوحة، كما هي العربات العابرة من فوقنا، وجمالية قصر الرئيس تطل من عل، وبناية يسمونها ببناية المشروم لأنها محاطة بمظلات تشبه نبات الفطر، مع أنها بناية إدارية لتقديم خدمات من نوع رخص القيادة والبطاقات الشخصية وجوازات السفر.. وغيرها.

والمفارقة أن سيارات المدينة تعمل على نظامين في موقع قيادتها، يمينا أو يسارا، وتمضي بهدوء لا تسمع الضجيج المتوقع في مدينة صغيرة يسكنها مليون ونصف المليون شخص، بنظام سير يحترمه السائرون، وللمشاة حقوقهم،

في تخصيص أماكن للمشي أمامهم أو الأنفاق لعبور الشوارع، وليس كما يحدث في عواصم أخرى حيث يكون «الحق على المرحوم» الذي دهسته سيارة وهو يسير على الرصيف، أو يحاول عبور شارع لا يحفظ له حقه.

كان الباص المفتوح يشق طريقه في دروب المدينة القديمة، مطاعم ومقاهٍ وشرفات منازل، وتحرسها من فوق قلاع وكنائس، وتمثال عملاق مصنوع من الألمنيوم لامرأة هي «أم كارتلي» تحمل في يدها وعاء، وفي الأخرى سيفا، يقال إن طوله يبلغ ٢٠ مترا، شيّد عام ١٩٥٨ على قمة جبل في منطقة «سولولاكي»أحد أحياء العاصمة تبليسي بمناسبة مرور ١٥٠٠ عام على تأسيس المدينة، رمز أمومي أنيق يقول للزائر إذا جئت بسلام فلك التحية، أو السيف في يدي لأدافع عن بلادي إن جئت عدوا.

من على الجبل ترى تبليسي جميلة نهارا، وأجمل ليلا، من إطلالة بجوار التمثال ترى النهر يمضي تحت أقدام المدينة، والمعالم الجميلة الأخرى أبرزها جسر السلام بين ضفتي النهر، والمعالم التاريخية القديمة، مع الصروح الحديثة من بينها المعرض الفني الذي يتخذ شكل اسطوانتين عملاقتين.

على الضفة الأخرى من ذلك المرتفع تكتشف أن غابة مبهرة تمتد بجمالها الأخضر كأنها تختبئ عن المدينة، وفي الممشى وفق ذلك العلو تجد باعة العصائر والمثلجات، وشاب يعزف على آلته الموسيقية، وصبيّة معه تجمع النقود المعدنية، وستجد فتنة المساء حيث تبليسي تودع يوما عاكسة لحظة الغروب على سطح النهر المتماوج مع مشاعرك، وحيث الضوء لا يكاد ينسحب عن تمثال المرأة الجورجية، يشرف على المدينة، والسيف في يد الأنثى / الأم له معنى أكثر وقعا، مما لو حمله رجل.

على البعد يمكن رؤية ساحة الحرية، بتمثالها النحاسي اللامع، الفارس الذي يهوي برمحه على الكائن الذي يمثل الشر / العدو، أو ربما ما يمكن أن ينال من حرية البلاد، التماثيل تتكاثر في المدينة، وتمثل حالة معروفة في بلدان كهذه تحتفي برموزها من خلال تماثيل تذكّر المارة بهم عبر جريان السنين، هؤلاء الذين تركوا بصمة حضارية يستحقون بعدها التكريم بهذه الطريقة الفنية الجميلة.

كان بحثنا الدائم، البحث العربي، عن المطاعم العربية، أو التركية، كملاذ يمكن الركون إليه في وجبات الطعام، وتتوفر

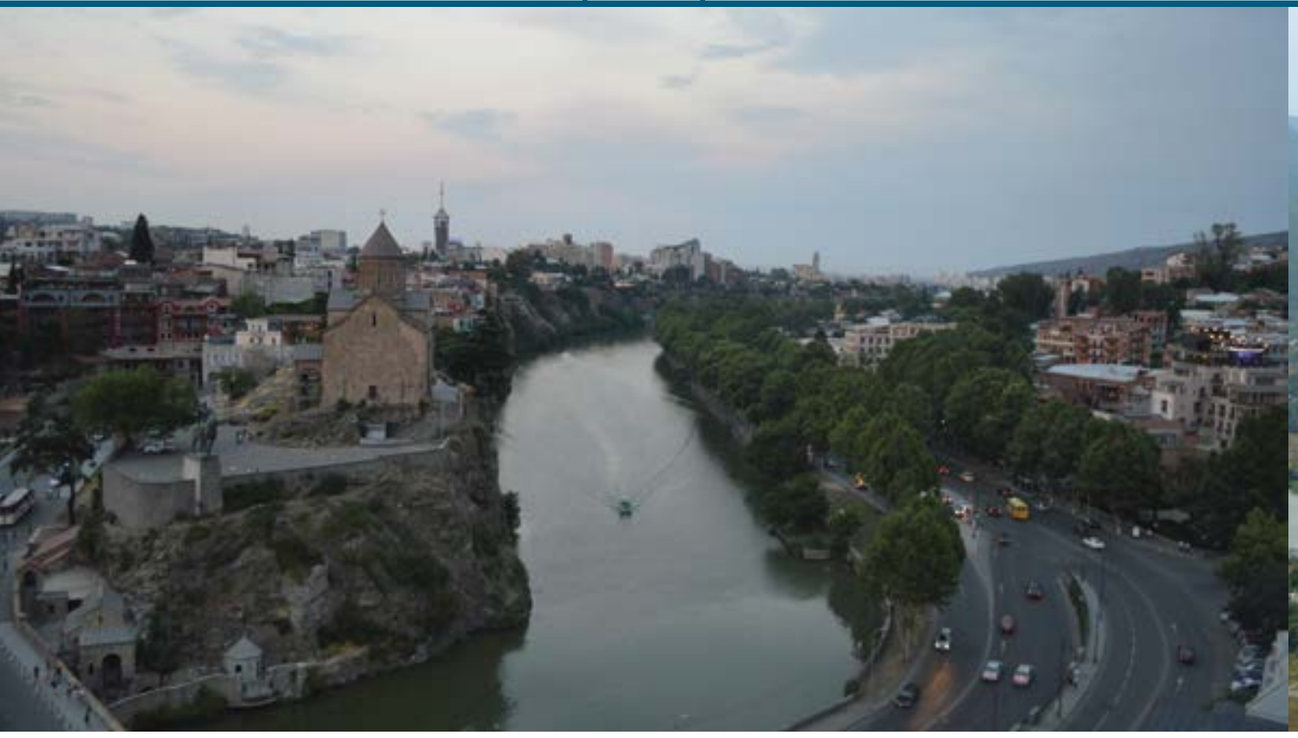

بقلّة تجعل أسعارها مرتفعة مقارنة بالأكلات الجورجية التقليدية، لكن الناس لم تعتد «الأجانب» ليذوب الجليد بين أبناء البلاد والغرباء بما يكفي للقبول بالسياح، والابتسام في وجوههم، والصبر على عبور الحاجز اللغوي.

كنائس.. ومحلات صرافة

مضت بنا جولة سياحية على معالم المدينة الدينية، الكنائس الكبرى التي تقع في العاصمة أو القريبة منها، كانت مفاجأة لم نخترها، ولم نفطن إلى أن «ماساخيتا» تعني جولة في أبرز دور العبادة القديمة، وتتناول تاريخ المسيحية في جورجيا.

على النهر تتعدد الجسور، والاتجاهات، وملامح الشعوب القاصدة لاكتشاف هذه المدينة وهي تخلع رداء الأمس متحررة نحو خياراتها العصرية، ولأنها، كما يبدو، وضعت السياحة ركيزة أساسية في مشروعها الاقتصادي لتجاوز ضعف مقوماتها الأخرى القابلة لضخ المليارات في دخلها الوطني فإن ملامح الاهتمام بالسياح كبير، فأينما يممت وجهك تجد ملمحا يدعو السائح إلى التعرف عليه، التمازج بين قديم تحافظ عليه حيث الأبنية الأثرية من قلاع وكنائس، والحديث الذي تعتني برفع صروحه كأمكنة الترفيه والساحات العامة بحيويتها وجماليتها، إضافة إلى توفر ما يحتاجه السائح من مقومات، تبدأ من عملية تغيير العملة (ولم اشاهد في حياتي مدينة بهكذا محلات صرافة) وماكينات الصرف، وما أكثرها، مع احترام كبير من الناس العاديين، قبل أن يكون من رجل الشرطة وهو يحجز الطريق أحيانا لنتمكن من عبور الشارع، ولا اكثر من المسارات التي تحترم البشر، ففي الساحات هناك احترام للخصوصية، وترفيه للصغار والكبار، دون شعور السائح أنه في بلد يراقب أفعاله.

اقترحت علينا شركة تسيّر خدمة الباص المفتوح أن هناك عرضا آخر لزيارة مدينة تسمى ماساخيتا، وقالت لنا الفتاة بابتسامة قليلة الحدوث على أفواههم إنها مكان جميل، ولأننا نبتغي رؤية الجمال وافقناها على اقتراحها..

وكان المشوار على غير ما ابتغينا، فلكل قوم مزاجاتهم وثقافاتهم وديانتهم، ولا اجد نفسي وأنا أتأمل كنيسة قديمة بنيت كأول دخول للمسيحية إلى جورجيا، إلا من خلال تأمل ذلك المنظر ونحن نشرف من تلة عالية على مساحة هائلة من الجمال، النهر والخضرة والوجوه الحسنة، والمدينة التي

تتمدد بحسنها كأنما هي لوحة أمامنا.

كان الباعة يجلسون على جانبي الطريق في كل مشوار، ومن كنيسة إلى تاليتها، كلما قلنا إن هذه هي الأخيرة اكتشفنا أنها ليست كذلك، ولأنه ينطقها باللغة الجورجية ولا نعرف أين الاسم من الفعل فلم نعرف في أي كنيسة كنا، ندخل بذلك الاحترام لديانة سماوية، وبتلك المحبة للسيد المسيح عليه السلام، وتلك القداسة للسيدة مريم العذراء، نتأمل النقوش والصلوات التي يؤديها البعض بسكينة التعبد، إلى خالق واحد أحد.

في إحدى الكنائس كانت العرائس يخرجن بفساتين الزفاف بكامل أناقتهن وحسنهن.. جئن طلبا للبركة، رغم الانفتاح الهائل في الحياة الجورجية إلا أن البشر لا غنى لهم عن الجانب الروحاني اللازم في مسيرة حياة ملأى بالمتناقضات و(الفحش) المادي.

والذين يبعيون التذكارات يتوزعون نسخا متشابهة، بقرب الكنائس، أو سائر الأمكنة السياحية، باعتبار أن دور العبادة القديمة اصبحت مزارات سياحية، أكثر من كونها دينية، وتبدو الحلويات الجورجية بأشكالها الطولية حيث هي مزيج من الحلوى والمكسرات، وكما شبهها أحدهم أنها «سنكرز» جورجي، كما تعرض العرائس بالزي التقليدي.

أطلق العرب على جورجيا قديما بلاد الكرج، وارتبط انتشار الإسلام فيها بانتشاره في بلاد ما سمّي أرض الرحاب التي تحدّها شمالا، والرحاب عند الجغرافيين العرب اصطلاح يشمل أذربيجان وأرمنيا وأران، وبدأت أولى المحاولات لدخول الإسلام إلى «أرض الرحاب» في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهد الخليفة الرابع عثمان بن عفان وصلت إليهم غزوة حبيب بن مسلمة الفهري، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان أرسل إليهم حاتم بن النعمان، وأرسل إليهم عبد الملك بن مروان محمد بن مروان والذي شهدت مرحلته الطويلة تثبيت الإسلام فيها، حيث قضي على غزو الروم والخزر لمنطقة الرحاب.

باتومي.. مدينة يحبّها البحر

الطريق بين العاصمة تبليسي ومدينة باتومي على البحر الأسود ما يقارب ٤٠٠ كيلومتر من المتعة البصرية؛ الجبال المكسوة بالأشجار، والأنهار الصغيرة تسيل فتنة بين القرى المتناثرة كثمار شجرة على تلك الامتدادات.. ساعات من السير على طريق ضيق ترى الحسن يسير معك.. باعة الفواكه والتذكارات الخزفية وجرار العسل.. والحقول المترامية باشجار التفاح وسائر الأشجار المثمرة من خوخ ومشمش.. وانواع الخضروات التي تزيّن الارض بركة.

وكان الباعة يرسمون تشكيلات من بضاعتهم حتى وهم يضعون البطيخ بلونيه الأخضر والأصفر تحت ينبوع الماء البارد؛ .. وكأنه موسم البطيخ (الجج)، يتكاثر باعته على الشوارع، لكن أحدهم شدني كثيرا، كان النبع يشق سفح جبل، وبجواره تكدست عشرات من الثمار، وضع بعضها تحت مصب الماء لتبرد، وكم كان طعمها لذيذا، وباردا، ويكفي أصغرها لأكثر من عشرة أشخاص.

تمر بعض الشوارع بين عناق الأشجار العملاقة من على الجانبين فتظلل الدرب على السائرين؛ تبدو اللوحة مدهشة لأنها تمتد مسافات إثر مسافات؛ ولعدة كيلومترات.. فيما العين تتنقل كالقلب بين الضفتين تشرب من اللون الأخضر. منازل صغيرة تندس بين الاشجار على سفوح الجبال فتغبط الساكن فيها.. إنما هي فتنة الاختلاف.. ربما يشعر ساكنها بالملل.

في تلك السهول الخضراء كانت قطعان البقر تتهادى بأريحية، حتى في الشوارع كأنما هناك اتفاق ثقة مع قائدي السيارات الذين يثقون بأن البقرة لن تتحرك قيد أنملة وقد تسير على الخط الفاصل بين الاتجاهين. والسيارة تعبر بجوارها بذات انطلاقتها دون إبطاء السرعة.. كانت الحقول ساحاتها الأثيرة ولا ينافسها فيها إلا قليل من الماعز والخنازير والبط.

قطيع من الأبقار يمكنه قطع الطريق على الجسر، فيلزم السائقين فتح مجال بين أجسادها، للعبور، دونما أي انزعاج متبادل.. لا من الأبقار، ولا قائدي السيارات!

وكان السكان يبحثون عن برك الماء للسباحة واللجوء إليها من حرارة الصيف ودرجتها تتجاوز الثلاثين.. فيما كان أغلب الرجال يتخففون من ملابسهم بسبب الحر.. لكنهم يبقون مرتدين ما هو أكثر من النساء، ويبدو موضوع الحر مسألة نسبية؛ ويعدون درجة الحرارة في رقمها الخمسين ضربا من الخيال.. بينما درجة الحرارة معهم ربيعنا الجميل.

كم من الأنهار عبرنا فوق جسورها..

كم من الغابات امتدت بشموخ أشجارها، وكثافة التقاء

الأغصان، كان السائق لا يكف عن اتخاذ المسارب نحو أمكنة جديدة كأنما يقول انظروا هذه بلدي، دخلنا إلى كهف برومتيوس، بذات الفكرة التي عليها كهف الهوتة في السلطنة ومغارة جعيتا في لبنان، لكن طول الكهف الجورجي أكثر من كيلومتر بين تشكيلات ولوحات أبدعها الله على يد الطبيعة، ثم من داخل الكهف خرجنا بالقارب لتصافح أعيننا من جديد فتنة الاخضرار.

تعدّ باتومي عاصمة مقاطعة أجاريا في جورجيا، وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها ١٥٠ الف تقريبا، وتجاور الحدود التركية حيث يمكن الوصول إلى المدن الواقعة في الجانب التركي خلال أقل من نصف ساعة.

المسافة الطويلة بين العاصمة تبليسي ومدينة باتومي تصبح مجرد نزهة جميلة حالما الوصول إلى هذه المدينة البحرية الأنيقة، بشاطئها الجميل، مساحة دافئة من المتعة البصرية، البحر ونداءات أصحاب السفن السياحية التي تمخر البحر الأسود، والدائرة العملاقة التي تقودك في حركتها لاكتشاف زرقة البحر واخضرار الجبل، والتلفريك الذي يصعد بك وقت طويلا إلى قمم الجبال البالغة الجمال، في باتومي وجدنا الحي العربي، حيث المطاعم القادمة من مطابخ الشام، والمسجد، والعائلات العربية المتدفقة إلى ما تأكله تحت مسمى «حلال».

المقاهي على البحر، والأكشاك الصغيرة عامرة بالحيوية، رغم حاجز اللغة إلا أن السلعة وفق مفهوم العرض والطلب يمكنها أن تلجم الهوّة بين البائع والمشتري، بينما يمتد الساحل بحركته القادرة على ضبط النظام حيث لكل متجوّل مساحته، أكان يسير على قدميه أو على دراجة هوائية.. أو بوسائل حديثة أخرى.

مدن تتوالى، برجومي، كوتايسي، وغيرها من حسناوات لؤلؤة القوقاز، جبال تجاور روسيا فتكتسي قممها بالثلج، وجبال تبدو مسطحات تتخلص مما تبقى من جليد عليها، قبل أن يزحف الشتاء مرة أخرى، وتغدو ملاذا لمحبي التزلج، حينها تكون المرتفعات بيضاء مكتسية بفتنة أخرى، متنقلة بين اللونين الأبيض والأخضر.

ستالين.. ولد هنا

قال السائق الجورجي إن ستالين ولد هنا، في هذه المدينة، غوري، كان ذلك في ١٨ ديسمبر ١٨٧٨ (توفي في ٥ مارس ١٩٥٣)، يفتخر السائق بأن ستالين جورجي، فهو القائد الثاني للاتحاد السوفييتي ورئيس الوزراء (١٩٤١-١٩٥٣)، ويُعدّ المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي، تشير المعلومات إلى أنه معروف بقسوته وقوته، وأنه قام بنقل الاتحاد السوفييتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي مما مكن الاتحاد السوفييتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية والصعود إلى مرتبة القوى العظمى.